مدام دي ستايل

رأيها في فرنسا والمانيا وايطاليا وانكلترا

هي كاتبة فرنسوية اللغة والفكر باريسية المولد والتربية سويسرية الوطن الثاني المانية الوطن الاول اسوجية الاسم لزواجها من اسوجي · قارعت بونابرت فقرعتهُ · وتزوجت مرتين مرة في الجهر ومرة في السر فكانت سيئة الحظ في المرتين لان عمر بعلها الاول (٣٧ سنة) كان نحو ضعفي عمرها فلم تحبهُ ولم يحبها ولأن عمر بعلها الثاني (٢٢ سنة) كان نحو نصف عمرها فضلاً عن انهُ أصيب بالسل بعد زواجهما باربع سنوات ولكنها ماتت قبلهُ بنحو نصف سنة · على ان كلا الفريقين قنع بالزواج الاول تلبية لداعي المصلحة ثم افترقا على سلام ووجه المصلحة لها في ذلك الزواج ان الرجل اكتسب مالاً لان قرينتهُ كانت غنية وهي اكتسبت جاهاً لان بعلها كان شريفاً وسفيراً

ولا نتولى في هذا المقام سرد تاريخ حياتها فقد اتينا على ذلك في بعض مجلدات المقتطف الماضية وانما نقول انها ولدت في زمان يُمدّ مفترق عصرين ونقطة انقلاب عهدين عهد فرنسا المجوز وقد اثقل كاهلها الظلم وعهد فرنسا الفتاة وقد اصفرّ لها الشفق مبشراً ببزوغ شمس الحرية والاخاء والمساواة · ولدت سنة ١٧٦٦ فرأت اواخر العهد القديم وتعرفت باهلهِ ولكنها لم تكن منهم وان كانت فيهم · ورأت كذلك طوالع العهد الجديد وعاشت بين اهلهِ وكانت منهم ولقيت نبوليون رأسهم وكان لها معهُ وقائع آلت الى ابعادها عن فرنسا غير مرة لما استبدّ بالامر واخلف آمال المصلحين من اهل العهد الجديد وجنى على قومهِ وجيرانهِ الاقربين والابعدين ما لم يجنِ لويس السادس عشر عشر معشارهِ · وماتت سنة ١٨١٧ بعد معركة ووترلو بسنتين وقبل نبوليون باربع

اما زواجها السري بقرينها الثاني فكان سنة ١٨١١ ولم يشتهر امرهُ الاَّ بعد مماتها وقد اقدمت عليهِ كما قالت الانكلوبيديا البريطانية لتسلية همّها بعد خيبة آمالها ممّا جرى في فرنسا · وشاع في حين من الاحيان ان وليم بت الصغير والوزير الانكليزي الكبير اراد خطبتها · وحامت الاشاعات الكثيرة حول علاقتها بناربون[1] في اثناء اقامتها بانكلترا كما

(١) قائد وسياسي فرنسوي مشهور

حامت حول علاقات امها بالمؤرخ جبُن الانكليزي قبلها وكما تحوم في كل عصر ومصر على حدّ قول الشاعر العربي

ألا قاتل الله الوشاة وقولهم فلانة اضحت خلة لفلان

وكانت في زمن نفيها من باريس اولاً ثم من ارض فرنسا كلها ثانياً تقيم في كوبه بسويسرا قرب بحيرة جنيف حيث كان لابيها املاك واسعة ولكنها كانت تحنّ الى باريس دائماً ولا تطيق البعاد عنها فاذا غفلت عين نيوليون عنها عادت اليها ثم اذا استفاق من غفلته كرّت عنها الى سويسرا . وكان يسوءُهُ منها شكاستها وعدم رضوخها لسلطته ورنها كان مسرورها بمغادرتها لها وخروجها من الممان مهزوماً اعظم من مساءته منها

وانما حدا بنا الى العود اليها مقالة رأيناها في الجزء الاخير من مجلة القرن التاسع عشر عنوانها « مدام دي ستايل والحوادث الجارية » وهي جديدة في بابها ولاسيما ما اختص منها بزيارة مدام دي ستايل لانكلترا ورأيها في البلاد واهلها فاخترنا تلخيصها على قدر ما يسمح به المقام . قال الكاتب وهو الاب ارنست دمنيه الفرنسوي بعد مقدمة طويلة :

كانت جرمين نكر (اسم مدام دي ستايل قبل الزواج) تقول بفائدة الاصلاح والعدل وما في الحرية من القدرة على تجديد حياة الامة . وكان مونتسكيه قبلها في الفلسفة وروسو وتشردسن انموذجيها في الادب ولم يخامرها ريب في انهُ اذا جاء الدستور الذي يشير به الاول فان حكم العقل والصلاح والطبيعة الذي قال به الآخران يجيءُ منقاداً مختاراً . وكانت تعتقد ايضاً ان النبوغ في الانشاء وصحة المبادئ السياسية امران متلازمان وان العبقرية لا تولد على الغالب الاّ في بلد حرّ

وكان اعظم صدمة صدمتها اخفاق الثورة الفرنسوية . فقد علقت النفس هي وتلاميذ روسو بان الثورة تقابل على الرحب والسعة فاذا امامها سيول من الدم والظلم . ولم تستطع رؤية يد العناية في كبائر الجمعية المسماة جمعية سلامة الوطن لانها كانت تكره وضع الخير العام فوق الناموس الادبي واعتقدت بان لابدّ من ادخال تغيير على الدستور في عهد الدركتوار فانعم هذا الاعتقاد قلبها سروراً . وايقنت بانهُ اذا عُمل بالدستور سنين كثيرة ورفعت من طريقه الحوائل والعوائق اصبحت الحرية حقيقة فعلية لا كلمة تكتب على الآثار العمومية

ولكن املها هذا خاب ايضاً . ففي سنة ١٧٩٥ لقيت الجنرال بونابرت لاول مرة وكان عمرهُ ٢٦ سنة (اي كان اصغر منها بثلاث سنوات) وكل احد يعجب بطيبة قلبهِ وذكاء

عقله . وكان رفاقهُ من اعضاء الدركتوار يتكلمون كمن لهُ سلطان ولهجتهم لهجة الضابط الفظ الغليظ القلب . اما هو فكان يتصرف تصرف القاضي الحكيم والرجل الموكول اليهِ تنفيذ القانون . وكأن مدام دي ستايل أُخذت في تيار الاعجاب بهِ لدى مقابلتها الاولى لهُ وصمتت حتى نقدت كل قواها في حضرتهِ فلم تنطق الاَّ ببعض الكلمات العادية شكراً لهُ على مدحهِ لابيها

وفي سنة ١٧٩٧ عاد بونابرت الى باريس فاجتمعت بهِ مراراً ولكن اطوارهُ كانت قد تغيرت في خلال تينك السنتين اذ ادرك فيها انهُ صنم رجالهِ المعبود بل وثن فرنسا كلها واستولى عليهِ الاعتقاد بنجم سعدهِ الصاعد في البروج وهذا الاعتقاد جعلهُ يخطر بكل عقبة كؤود تعرض في سبيلهِ وتدل ظواهرها على انها لا تذلل ولا تمهد . وكانت مدام دي ستايل كما لقيتهُ تدرسهُ درس الباحث المنقب ووقع في نفسها منهُ ما سمتهُ « تفوقهُ » على غيرهِ ولهجة البتّ والجزم التي كانت بادية في اقوالهِ كلها . ولكن ذلك التفوق لم يكن من الصنف الذي تحبهُ وتحترمهُ . قالت : « وكل كلمة تفوّه بها شفّت عن رغبة مطلقة في ادراك اشياء حقيقية قريبة (لا خيالات بعيدة) فهو بذلك كالصياد الذي يطلب صيداً » . وكانت تكره منهُ غياب ذهنهِ وادبهُ المتكلف وتستاء من طريقة سؤالهِ عن امور شخصية لا يحسن السؤال عنها . واخيراً وصفتهُ ووصفت اخلاقهُ بعبارة بديعة لم يصفهُ « تاين » بمثلها في كل ما كتب عنهُ وهي قولها « لم يكن يحسب الناس خلائق مثلهُ بل حوادث او اشياء » . ولما كانت تعتقد ان هذه الخلة هي اشد الخلال مضادة لرعاية الجار التي عدّتها اساس الحرية وكانت هي وبونابرت سواء في سرعة الانفعال فلا عجب اذا شعرا كلاهما من مبدإ الامر بانهما عدوان لا يصطلحان . فلم تأتِ سنة ١٧٩٩ حتى مسخ ذلك الجنرال الشبيه بالقاضي والحاكم جبّاراً عنيداً في نظرها وحتى قام صديقها كونستان يذم من المنابر جهرةً عود عصر الظلم والاستبداد

وقد يعجب المرء كيف ان مدام دي ستايل وهي ابنة ابوين سويسريين وقرينة رجل اسوجي لم تتبرأ من باريس وتنفض يديها منها غير آسفة عليها بعد نفيها وبعد خيبة آمالها وتلزم بيت ابيها في كوبه وهو خير مقام لمن كان تلميذاً لروسو مثلها . والحقيقة ان جميع افكارها وتصوراتها كانت فرنسوية . وجميع اصدقائها فرنسويون اما بالميلاد واما بالاختيار . وظأها الى الحديث لا يروى الاَّ في فرنسا . وكان همها في اسفارها الاوربية عم شخص نظرهُ في الادب نظر باريسي وفي السياسة نظر من شاهد حادثين عظيمين وراح فريسة

لها . وهما اخفاق الثورة الفرنسوية وقيام نبوليون بونابرت ذلك بانها كانت تتطلع شوقاً الى تلك الحرية السياسية التي عدتها امّ العظمة في كل صقع فلا بدع اذا جاءت خيبة املها على قدر شوقها

وبعد ما اقامت بضعة اشهر في كوبه قصدت المانيا مع ابيها . فقالت فيها انها ارض لا امة لان الوحدة السياسية لم تكن معروفة هناك ولا كانت مطمح احد . وكانت سوق الصناعة والتجارة كاسدة ومنظر البلاد يدل على بساطة العيشة وشظفها وبعدها عن الترف وكثير من بقاعها غير آهل . وكانت فوق ذلك كله خلواً من السياسة واهلها وهمومها والسياسة في عين مدام دي ستايل مقدمة على كل شيء . ومع كثرة الذين عرفتهم من اهل العبقرية والعلم من الالمان ما كان ذلك ليسدّ نقص البلاد مما احبت فوق كل شيء وهو الروح القومية الصحيحة ولا ليستر العيب الناشئ عن وجود الروح التي كانت تكرهها وهي شدة تملّق المحكومين لحكامهم وخنوعهم لهم لو لم تجد في البلاد اينما سارت خُلقاً قالت انهُ اكرم الاخلاق وهو بعد الالمان عن حب الذات وعدم مبالاتهم بمنافعهم الدنيوية وغرقهم في بحور التأمل والتفكير وذهابهم كل مذهب في شعاب الفلسفة . فهذه الحرية العقلية رجحت في عينها على العبودية السياسية الالمانية التي ليس من شأنها ان تخلق من الانسان المادي رجلاً عارفاً بحقوقه المدنية غيوراً عليها والتي كانت تحسب السلطة استبداداً وظلماً لولا بساطة القوم ولين مراسهم مما جعل تلك السلطة مفترة الشر مشرقة الخير

وذكرت في مكان آخر ان بروسيا من صنعة اكثر الملوك استبداداً واشدهم تهوراً ولكنها مع ذلك بلد الفكر والفكر حرّ في جميع جوانب المانيا . ولما كان ملوكها انفسهم قد شجعوا اهلها على هذه الحرية الفكرية فمن الصعب ان يسمى الالمان عبيداً . والبلاد تغصّ بالعلماء الذين يلقاهم المرء في كل امة ايام السلم وهم في الظاهر معاصرون لنا وعائشون بين ظهرانينا ولكنهم في الباطن عائشون في الابدية

واعظم ممثل لهذه الغيرة الالمانية على الحق الصرف في زعمها الفيلسوف « كنت » . فان الفلسفة التي راجت ايام كانت صغيرة السن مكبّة على روسو لم تكن ما في كتابه « اميل » من الانفعالات النفسية بل تقديس الذات وتباهي لندن وباريس في ذلك . والفلسفة التي خلّفتها جمعية سلامة الوطن ارثاً لبونابرت كانت نبذ الناموس الادبي . اما في المانيا فان وضع الواجب فوق كل مصلحة ولو مصلحة الجماعة كان قد تأصل في كل ذهن من اذهان الخاصة والعامة حتى ظهر انهُ يستحيل على الالماني ان يرمق بنظرة الاستحسان عملاً من اعمال الطمع

او الجشع فضلاً عن ان يقدم عليه . فافتتنت بهذه الحالة حتى انستها ما وجدت البلاد عليه من الجمود الاجتماعي . يخيل اليها ان المانيا نموذج الصراحة الادبية بما تحمل هذه الصراحة من الثمار الطبيعية ونموذج الطهارة وسمو النفس حتى كانت تصف الالماني بقولها « الالماني المسكين الشريف » . وكانت باريس تمثل في زمانها روح العسكرية الوحشية . ولم تذكر الضابط البروسي مرة الاَّ بالخير وبالقول انهُ دعيّ لا ضرر من دعواهُ يرضى بان يُضرب ما دام ضربهُ مطابقاً للقواعد العسكرية

***

اما ايطاليا فلم تجد في مدائنها مثل ميلان وروميه ونابلي اثراً للحرية المدنية كما عرفتها ولا املاً بها . وكانت كلما ذكرت ايطاليا سمتها « العبدة الجميلة » واحبتها لان ارضها ارض العواطف وسماءها سماء الاحلام المطربة . وكانت كورين التي عليها مدار روايتها عاشقة وشاعرة والرواية كلها عشق وشعر . واهمّ ما همّها في ايطاليا المزاج الايطالي الفيّاض والطبيعة والفنون الجميلة . ولكنها لم تنسَ في روايتها هذه ان في ايطاليا اشياء اخرى غير الشعر والموسيقى والجمال

***

وقد قابلت في كتابها « خواطر في الثورة الفرنسوية » بين الفرنسويين والانكليز وتساءلت هل يصلح الفرنسويون للحرية واجابت عن ذلك بقولها نعم ما دام الانكليز صالحين لها . ثم تساءلت ولكن أليس للانكليز طبع خاص بهم يدعوهم الى احراز الحرية . واجابت عن ذلك بقولها لا وتاريخهم شاهد بصحة هذا القول . نعم انهُ منذ سنة ١٦٨٨ (تاريخ الثورة الدستورية الثانية في انكلترا) لم تختم جلسة من جلسات البرلمان الانكليزي الاَّ وقد ادخل فيها شيء من الاصلاح على الحالة السياسية . ولكن لم يكن الامر كذلك قبل السنة المذكورة بل ان آل تيودور كانوا مثل آل ستيورت طغياناً . وقبلهم اتى على البلاد عهود طويلة خضع فيها القوم لملوكهم خضوع المستكين وكانوا يستفيقون من سباتهم السياسي فترة قصيرة كل حين من الدهر ربما يذكرون ملوكهم بالحرية السياسية الكبرى التي نالوها في ثورتهم الدستورية الاولى (سنة ١٢١٦) . ولما كان الفرنسويون قد اظهروا انهم قادرون على اعظم ثورة سُجلت في التاريخ فلا بدع ان يجري في فرنسا ما جرى في انكلترا

لما وصلت انكلترا سنة ١٨١٣ كان الوزير بيت قد مات ولم يكن ولنتون حتى تلك السنة ذلك البطل الذي صيرتهُ معركة ووترلو ما صار . وكان الملك (جورج الرابع) مجنوناً

والحالة المالية حرجة بعد احتمال انكلترا لاعباء حرب دامت عشرين سنة. ومع ذلك لم تلحظ اثراً للقلق ولا رأت ان البلاد في حاجة الى ملكها او الى اعلامها الذين ماتوا قبل زيارتها لها بل ان كل رجل ادرك ما يجب عليه لوطنه وهو العمل بلا ضجة وقضاءهُ بلا جهد ظاهر حتى قالت في ذلك: «حقاً ان الامة الانكليزية جمع من النابغين» فان الرفاه والثراء كانا يربان اينما كان وكانت الزراعة تربح حيث خسرت التجارة واستعملت الخزينة الانكليزية ان تبقى بنك اوربا في وجه عدوها العام

فلا عجب اذا تساءلت مدام دي ستايل عن تلك القوة الغريبة وسط تلك المصاعب والمكاره. فانهُ لما تولى ابوها تنظيم المالية الفرنسوية قبل بخمس وعشرين سنة وفاز بمرامهِ كان دأبهُ الصراحة التي سمّاها الماليون في زمانهِ حسداً منهُ حبّ الافشاء. ولكن مدام دي ستايل لم تأنف من استخدام هذا التعبير في تعليل نجاح انكلترا فقالت ان حبّ الانكليز للافشاء وعدم الكتمان هو الذي منع تلك العجائب بينهم. فان الامة الانكليزية وقيمها ووضيعها عرفت اين هي. ولم يكن في حسابات الخزينة زوايا مظلمة تلقي ظلّ الريبة والشبهة عليها او تؤدي الى البلابل والهموم التي عاش اهل العهد الماضي وماتوا فيها. وكلّ انكليزي كان يرى النور في اعمال حكومتهِ وشؤونها. وحيث النور فلا مجال للخوف والقلق

وطربت بالبرلمان الانكليزي لانهُ جاء محققاً لامنية طالما اشتهتها للبرلمان الفرنسوي وهي التي سمّتها «بالمناقشات العمومية البديعة» وقالت عن البرلمان انهُ ارستوقراطية بالغة منتهى الكمال ومفتوحة في وجه كل عظامي وكل عصامي وانهُ الممثل الحيّ لما تستطيع الجماعة عملهُ في سبيل تبسُّط الفرد. وهو يجري على سنن ديموقراطيّ صحيح والرأي العام يملك فوقهُ بلا منازع. والانكليزي يدرك ذلك ويشعر ان ليس لهُ امياد يحكمونهُ وان كبراء قومهِ خاضعون لما يخضع هو لهُ. فذلك اهتمّ الجميع اهتماماً واحداً بمصلحة البلاد المشتركة

ومما قالتهُ ان حالة انكلترا السياسية هي نتيجة شعور الفرد بقدر نفسهِ وهذا هو اساس الحرية الحقيقي. فليس في البلاد شيء من خفة الفرنسوي والايطالي ولا من تزلُّف الالماني الى السلطة الحاكمة بل فيها الحرية التي تكون في نادٍ كبير يقول فيهِ كلٌّ ما يشاء. والخلاصة ان كلّ ما رأت وسمعت في انكلترا جاء مطابقاً لذوقها الاجتماعي ورأيها السياسي

ومع شدة اعجابها بانكلترا واهلها لم يُعمِها ذلك الاعجاب عن رؤية بعض معايبها. فقد ثار ثائر غيرتها على بنات جنسها اذ رأت الرجال يكسفون السيدات الجميلات كسوفاً تاماً

ويحبون شخصيتهن وهن لا يبالين بذلك . وساءتها المشكلة الارلندية واوجه الضعف في النظام الانتخابي ورأت في ذلك مغايرة لروح العدل الذي كان يملأ صدرها

ثم غادرت انكلترا سنة ١٨١٤ وبقيت حتى كتابة كتابها « خواطر في الثورة الفرنسوية » في السنة التالية وحتى موتها سنة ١٨١٧ تقول انهُ اذا اقتبست فرنسا الدستور الانكليزي عاد ذلك بالفوائد العظمى عليها وعلى سائر العالم المتمدن

واستطرد الكاتب من ذلك الى التكهن بما كانت تقول مدام دي ستايل وما كانت تظن لو قامت من قبرها وشاهدت ما طرأ على خريطة اوربا خاصة من ازالة نحوم قديمة واقامة نحوم جديدة وما طرأ على اقوامها من الانقلاب السياسي والاجتماعي فقال انها كانت تسر بنشوء ايطاليا الجديدة ونشوء الممالك الصغرى المستقلة كالبلجيك واليونان وسائر ممالك البلقان وتحوّل المانيا من بلاد ذات ثلاث مئة حكومة الى امبراطورية عظيمة متحدة لتلو انكلترا في التجارة وثروة الفرد من اهاليها مثل ثروة الفرد من اهالي فرنسا المطحة الموسرة

ولكنها اذا التفتت من هذا الوجه المنير الى الوجه الآخر المظلم اسودّت الدنيا في عينيها اذ ترى معاملة المانيا للبلجيك والسرب وغيرهما من الامم المستضعفة وترى المانيا كروب قائمة مقام المانيا غيتي وشلّر وكنت . والمانيا القديمة بفضائلها قد ماتت وقامت على اطلالها المانيا جديدة ذات طمع وجشع وقد وقف تلاميذ كنت وشلّر فيها وراء المالي والعامل والصانع وصاحب السفن ومحصّل المال بكل وسيلة — وقف اولئك التلاميذ وراءهم يبسطون لهم قواعد الفتح ومبادئ التسلّط على العالمين ويبررون الوسائل التي يُعمَد اليها في هذا السبيل مهما تكن صفتها بدعوى ان العمران (Kultur) ناموس مستقل لا يُسأل عما يفعل

نقول وان امرأة خاصمت نابليون وعاصرت تلران[1] وفُضّلت على شاتوبريان[2] وصاحبت بيرون[3] لجديرة بان تكون عظيمة لهذه الاسباب ان لم يكن لغيرها . فقد وصفها معاصروها بانها اعظم نساء التاريخ وربما كانوا صادقين واقبوها بمؤسسة فن الروايات الحديثة ولعلهم غير مخطئين

(١) سياسي فرنسوي مشهور ولد سنة ١٧٥٤ وتوفي سنة ١٨٣٨

(٢) كاتب فرنسوي معروف

(٣) شاعر انكليزي مجاهر